جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الانسانية

قسم عـلوم القرآن والتربية الاسلامية

المحاضرة : ٨

المرحلة : الدكتوراه

اسم المادة : اسانيد وعلل

عنوان المحاضرة : مراحل تطور مصطلح الحديث

اسم التدريسي : أ . د عــدي جاسم حمادة صالح الجبوري

مراحل تطور مصطلح الحديث

يشتمل هنا الكلام على دراسة تعريفية للحديث لغة واصطلاحاً، ثم التعريف بلفظ القاعدة لغة واصطلاحاً أيضاً، ثم قمت بذكر المراحل التي مر بها مصطلح الحديث ، مبينا ذلك مفصلاً .

التعريف بالحديث عند اهل اللغة والاصطلاح

أ – الحديث لغة: ضد القديم، لأنَّه يحدث شيئاً فشيئاً، ويستعمل في قليل الكلام وكثيره .

ب – الحديث اصطلاحاً: عرف العلماء الحديث ثلاثة تعريفات:

الأول: ما أثر عن النبي | من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلْقية أو خُلُقية وما أثر عن الصحابة والتابعين من قول أو فعل. وهذا التعريف هو المشهور عند المحدثين.

الثاني: ما أثر عن النبي | من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلْقية.

الثالث: ما أثر عن النبي | من قول أو فعل فقط .

تعريف القاعدة في اللغة والاصطلاح :

أ– القاعدة لغة: هي الأساس ، وقواعد البيت أساسه، وفي التنزيل قال تعالى:{ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ | وفيه أيضاً قوله تعالى:{ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ |.

ومن معاني القاعدة في اللغة: الضابط وهو الأمر الكلي ينطبق على جزئيات مثل قولهم: كل أذون ولود وكل بيوض . ومن أمثال العرب: إذا قام بك الشر فاقعد،

يفسر على وجهين ؛ أحدهما: أنَّ الشر إذا غلبك فذل له ولا تضطرب فيه. الثاني: أنَّ معناه إذا انتصب لك الشر ولم تجد منه بداً فانتصب له وجاهده ، وهذا ما ذكره الفراء .

ب – القاعدة اصطلاحاً: هي حكم كلي ينطبق عليه جميع جزئياته أو أكثرها لتعرف أحكامها منه .

وعرفت أيضاً: بأنها قضايا كلية ينطبق حكمها على الجزئيات التي تتدرج فتعرف بها حكم الجزئيات .

ومن أمثلة القواعد الشرعية: اليقين لا يزول بالشك .

وقد جاءت أحاديث كثيرة في السنة النبوية المطهرة يعد كل حديث منها قاعدة مستقلة من قواعد الدين، منه قوله كل شراب أسكر فهو حرامٌ.

يمكننا أن نقسم مراحل تطور مصطلح الحديث إلى خمسة مراحل:

أولاً: مرحلة عصر النبي | وأصحابه رضي الله عنهم: لا شك أن نشوء علم الحديث قديم قدم بدء الوحي بالنزول على النبي | فأول علم نشأ منها علم الرواية وأول رواية من هذا العلم سماع، وهي رواية أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها لحديث بدء الوحي وقصة مجيء جبريل عليه السلام بأوائل سورة اقرأ إلى النبي فهذا أول حديث من وحي السنة فهو أول ما نشأ من علومها، فنجد أنَّ السنة قد أنزلت منزلتها في مصادر التشريع الإلهي مدة البعثة، فبعد اكتمال الرسالة وتأدية الأمانة أتاه اليقين وانقطع الوحي لذلك علم الصحابة رضي الله عنهم عظم الأمانة التي عليهم للأمة عبر العصور مع علمهم التام بلزوم التوثق من السنة، فكانوا يتوثقون من سنة الرسول | في حياته، وأما بعد وفاته | فقد ازداد شعورهم بضرورة التوثق من

السنة فاستمروا في التثبت قبل فتنة مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وبعدها، فنشأ بذلك علم جديد من علوم الحديث هو علم الجرح والتعديل، فيظهر لنا أنَّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا أول من بدأ بإنشاء ما عرف بعد علوم الحديث ومصطلحه.

ثانياً: مرحلة عصر التابعين: وبعد انتهاء عصر الصحابة رضي الله عنهم بدأ عصر التابعين، فتحمل التابعون بإحسان عن الصحابة رضي الله العلم والإيمان، وبعد تتابع الفتن على الأمة وتشعب الأحزاب زاد الأمر خطورة لأن أصحاب هذه الأحزاب يلجؤون إلى الكذب الصريح وإلى التدليس لإخفاء عيب رواياتهم، فبدأ الإسناد يطول وأصبح الحديث لا يسمع عن رسول الله | إلا بالواسطة، فدوت لذلك صرخات من أئمة التابعين لمواجهة كل هذه الأخطار المحدقة بالسنة، فمن هذه الصرخات كلمة الإمام محمد بن سيرين(ت ١١٠هـ) حيث قال: }إنَّ هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم .

ومع نشوء الإسناد نشأ بعض علومه الكفيلة بحفظ السنة في هذا الجيل، فبرز وتبلور مصطلح الحديث في هذا العصر والعصور اللاحقة له مع حركة التدوين، فمن الملاحظ أنَّ التقدم في تدوين السنة كان يواكبه تطور مصطلحات الحديث.

وقد أشار الإمام محمد بن سيرين إلى مصطلح الإسناد عندما قال: }لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم . وتكلم في علم الرواية عن أهل البدع . كما نجد الإمام محمد بن مسلم الزهري(ت١٢٤هـ) يذكر مصطلح الإسناد أيضاً ويتكلم عن حكم الحديث المرسل .

فإذا دققت النظر في هذه العلوم والمصطلحات التي نشأت في عصر التابعين علمت أنها أصول علوم الحديث وأسس مصطلحه.

ثالثاً: مرحلة عصر أتباع التابعين: وهي آخر القرون الفاضلة التي لم يفش الكذب إلا بعد ذهابها، فكان أعلى ما يقع لهم من الرواية حديث التابعي عن الصحابي فكان طول الإسناد سبباً لتشعبها وصعوبة حصرها مع ما ينشأ عن ذلك من كثرة العلل واختلاف الرواة في المتن والإسناد لذا باتت الحاجة ماسة لتدوين حديث رسول الله | فتدوين السنة بلغ مبلغاً كبيراً من التطور في هذا العصر، وكذلك مصطلح الحديث، ففي هذا العصر عصر أتباع التابعين قلما تجد مصطلحاً من مصطلحات الحديث إلا وقد تداوله العلماء من أهل هذا العصر فتكلموا عن الحديث الصحيح والضعيف والمسند والمرفوع والموقوف والمقطوع وغيرها من أنواع الحديث ومصطلحه.

وإذا تذكرنا أنَّ هذا العصر هو عصر الإمام شعبة بن الحجاج(ت١٦٠هـ) وسفيان بن سعيد الثوري(ت١٦١هـ) ، وحماد بن زيد بن درهم البصري(ت١٧٩هـ) ومالك بن أنس(ت١٧٩هـ) ، وغيرهم كثير علمنا المدى الذي بلغته علوم الحديث في هذا العصر.

رابعاً: مرحلة العصر الذهبي للسنة: ثم جاء القرن الثالث الهجري من سنة (٢٠٠هـ) إلى سنة (٣٠٠هـ) فشهدت كثيراً من العلوم تحولاً في هذا العصر على يد علماء عاشوا هذا القرن، فكان تدوين السنة في هذا العصر الذي يعد مقياساً لتطور مصطلح الحديث في أبهى مراحل تطوره، والدليل على ذلك هو مسند الإمام أحمد والكتب الستة ومنها الصحيحان فما انقضى هذا العصر إلا والسنة جميعها مدونة، لذا كان هذا العصر بحق هو العصر الذهبي للسنة، وكذلك شأن بقية علوم الحديث ومصطلحه خاصة، فبلغت مصطلحات الحديث وبقية علومه قمة تطورها بانتهاء هذا القرن.

خامساً: مرحلة التدوين: وهو الوقت الذي كان يخشى فيه العلماء من ضياع مصطلح الحديث بسبب الفتور الذي أصاب هذه الحقبة، مما دفع أئمة الحديث في هذا القرن للمسارعة إلى تصنيف كتب جامعة مفردة في مصطلح الحديث وعلومه، وأجل كتاب وضع في هذا الفن جمع شتات ما تفرق في غيره من أبحاث هو }المحدث الفاصل بين الراوي والواعيڑ للرامهرمزي (ت٣٦٠هـ) ، ثم تلاه كتاب }معرفة علوم الحديثڑ للحاكم النيسابوري(ت٤٠٥هـ) .

وقد تبلورت قواعد مصطلح الحديث بعد مجيء الحافظ أبي عمرو ابن الصلاح (ت٦٤٣هـ) ، حيث كتب قواعد المصطلح لأغراض مدرسية ثم جمعها في كتابه }علوم الحديثڑ ، وقد صار كتابه مرجعاً لكل من جاء بعده ينهل منه.

لكن ما كتب من قواعد في مصطلح الحديث لم يكن موضع اتفاق دائماً بين أهل العلم فنجد من يخالف فيها على مر العصور عند التأليف في هذا الفن.

وقد وجدت أنَّ العلامة ظفر بن أحمد التهانوي قد ذكر في كتاب إعلاء السننڑ بعض القواعد التي تندرج تحت فن مصطلح الحديث خالف في بعضها ووافق في بعضها الآخر ما رسمه الأوائل من تعريفات وحدود لهذه القواعد.

وسأحاول في المباحث اللاحقة من بحثي جمع هذه القواعد ودراستها مستعيناً بأقوال العلماء الجهابذة في هذا الفن، ومبيناً ما خالف فيه التهانوي غيره من الأئمة.